بريد الجمعة

بريد الجمعة

الجُمُعَة ■ ٣ مايو ٢٠٠٢ ■

يكتبه : عبدالوهاب مطاوع

النظرات المختلسة!

قرات رسالة «صوت الرعد» للفتاة التى تشكو من تضييق أبيها على أسرتها ورفضه المساهمة فى نفقات جهازها ولجوئه الدائم إلى حسم كل جدال حول نفقات الأسرة الضرورية بالصوت العالى الذى يشبه صوت الرعد ويصل إلى الجيران ويحرج الزوجة والابناء.. فأثارت هذه الرسالة خواطرى واستدعت ذكرياتى التى مازالت حية فى وجدانى حتى الآن. فلقد نشأت فى أسرة لأب ميسور ماديا إلى حد كبير ولم طيبة وأخوة وأخوات.. وكنت الأثيرة عند أبى لاجتهادى الدراسى ونظرتى الجادة للأمور، كما كانت حياتنا ميسورة من الناحية المادية، وبعد ظهور نتيجة الثانوية العامة ونجاحى بتفوق فيها ذهبت إلى منزل جدى لقضاء بعض أيام عطلة الصيف فيه.. فوجدت عنده شابا من أقاربنا لم أكن قد رأيته منذ سن الطفولة، وهو شاب متفوق دراسيا وخجول وبعد فترة لاحظت أن هذا الشاب يخترق النظر إلى ولا يتكلم إلا فى أضيق الحدود، وعرفت منه أنه كان يتابعنى باهتمام.. ويعرف أخبارى منذ فترة المدرسة الإعدادية وشعرت بقلبى يخفق لأول مرة فى حياتى كلما نظر إلىّ هذا الشاب أو تحدث معى، ودار بيننا حوار صامت بالنظرات فقط مفاده أن كلاً منا يتمنى الآخر شريكا له فى الحياة، وانتهت أقامتى عند جدى ورجعت إلى بيت أسرتى.. وانقطع الاتصال بيننا إلى أن تلقيت منه رسالة مهذبة يحثنى فيها على الاجتهاد فى الدراسة الجامعية والالتزام بالصلاة، وأكدت لى الرسالة أن كلاً منا يكن للآخر عاطفة قوية وليست عابرة وتكررت لقاءاتنا العابرة بالمصادفة فى بيت جدى.. وشعرت بأن الوقت قد حان لكى نضفى على مشاعرنا الطاهرة صبغة شرعية تعفينى من الإحساس بخيانة ثقة الأهل بى وفاتحته فى ذلك «فوعدنى خيراً» وبعد أيام جاء مع أهله لزيارة أبى وطلب يدى منه وتمت قراءة الفاتحة وتأجيل بقية الخطوات لحين انتهاء فتاى من دراسته.. وخلال فترة الخطبة جمعت بيننا ذكريات جميلة وبريئة حفرت فى قلب كل منا علامات لا يمحوها الزمن، وكل ذلك دون أن تجرى كلمة الحب الصريحة على لسان أحد منا. ثم جاءت مرحلة الإعداد للزواج وبدأ الحديث عن الأمور المادية، فقوجئت بأبى يقول لى ولخطيبى وأسرته وبصوت عال إنه ولو أن كان يملك بعض العقارات والأراضى إلا أنه لا يملك مال قارون.. وأن ما يملكه من مال سائل إنما يكفى فقط تعليم «أولاد» ومواجهة نفقات تحيتهم.. فإن تبقى من شيء فإنه يحتاج لأن يحتفظ به لنفسه لكى يعتمد عليه فى شيخوخته، ومادت بى الأرض ولم أجد ما أقوله.. ولاحظت بعد فترة أن فتاى وأسرته قد انقطعوا عنا لبعض الوقت.. وفهمت من ذلك أنهم لم يستريحوا لما قاله أبى ويتناقض مع ما يعرفونه عنه من ثراء.. وتحملت هذه الفترة على مضض انتظاراً لبدء الدراسة الجامعية عسى أن تكون هناك فرصة للاتصال بيننا، فبدأت الدراسة ومضت الأيام بغير أن يبعث إلىّ بأى رسالة.. وانتظرت أن تجيء الخطوة الأولى منه فلم تجيء ومضى الفصل الدراسى الأول كله ورجعت إلى مدينتى فى عطلة الصيف ومازال الأمل يحدونى فى أن أسمع خبرا مطمئنا من خطيبى، فإذا بأمى تلقى علىّ نبأ كالقنبلة وهو أن فتاى على وشك أن يعلن خطبته لفتاة أخرى خلال أيام.. وشعرت بالدماء تنسحب من عروقى وعافت نفسى الطعام والشراب.. فإذا طعمت شيئا لم يستقر فى معدتى لأكثر من دقائق، وصاحبتنى حالة التقيؤ المستمر حتى هزل جسمى وانخفض وزنى ١٥ كيلو جراما خلال بضعة أسابيع.. ومع تأكيد الأطباء لأهلى أنه ليس هناك سبب عضوى لحالة التقيؤ المستمر هذه وجدت لزاما علىّ أن أحاول التماسك فقاطنا على كرامتى أمام أهلى قبل كل شيء.. وتماسكت بالفعل وركزت كل اهتمامى على إنهاء دراستى الجامعية.

وتحسنت حالتى الصحية بعض الشيء.. لكننى كنت ما أن أعلم أن شابا قد تقدم لأسرتى حتى تعاودنى حالة القيء المستمر وأزهد الطعام والشراب من جديد، ولا تزول الحالة إلا بعد علمى برفض أهلى له.. واستسلمت لأقدارى فى النهاية وتمنيت لفتاى أن يسعد بحياته، ومضت خمس سنوات وأنا أرفض كل من يتقدمون لى.. إلى أن جلس معى أبى ذات يوم وسألنى عن نهاية هذا الرفض المستمر للخطاب والأيام تمضى والعمر يسرقنى.. ثم نصحنى بأن أقبل خطبة أول من يتقدم لى وأجرب استعدادى للتجاوب معه، فإذا عجزت فلسوف ينهى الخطبة على الفور.. واقتنعت بنصيحته وتمت خطبتى لشاب شعرت تجاهه بالقبول.. وأدهشنى أنه قد جاء إلى أبى رافعا الراية البيضاء من قبل الحديث فى الأمور المادية، وعارضا أن يتكفل وحده بكل تكاليف الزواج من أثاث وسكن ونفقات للزفاف إلخ. وكل ذلك بالرغم من أنه ليس ثريا ولا وارثا ورحب به أبى بالطبع، ومضت خطوات الزواج فى طريقها وحين اقتربنا من الزفاف بدأت فى أسرتى مشاكل الجهاز، فلقد تكفل العريس بالأثاث والنفقات، لكن العروس تحتاج إلى جوار ذلك إلى ملبس ومفروشات وأدوات طهى إلخ، فمن يتكفل بها سوى أبى مالك الأرض والعقارات والمعدود فى نظر الجميع من الأثرياء؟ ومن هنا بدأ «صوت الرعد» يدوى كل مساء فى بيتنا كلما طلبت أمى لى شيئاً من المستلزمات الضرورية للزواج أو كلما أشرت مع أبى إلى حاجتى لشراء شيء، وكم من ليلة نمت فيها ودموعى تبلل وسادتى حزنا لموقف أبى.. ولم نشتر شيئاً واحداً إلا بعد موال طويل وصياح وعويل وبكاء ونحيب، يفقدنى بهجة كل شيء، فى حين كان خطيبى رجلا كريما برغم قلة موارده ولم يبخل بشيء على تأثيث عش الزوجية حتى اكتمل وفقا لما اتفق عليه. وبعناء شديد انتهت رحلة العذاب هذه وتم توفير الحد الأدنى من مستلزمات الزواج وزفت إلى زوجى وأنا كسيرة النفس وحزينة من أبى الذى أحببته دوما ولم تنجح حتى أفعاله هذه فى أن تغير من مشاعرى تجاهه كابنة خاصة وقد كنا قبل بلوغى سن الزواج لا نشعر بأنه يبخل علينا بشيء.. وبدأت حياتى الزوجية وتعرفت على طباع زوجى فوجدته رجلا رائعا كريم الخلق عزيز النفس شهما يهيم بى حبا وكان الدنيا قد خلت من النساء فيما عداى، ويقول لى على الدوام إننى أول وآخر حب فى حياته، وأنعم الله علىّ بالأبناء، وشكرته دائما على حياتى مع زوجى وأبنائى، ولكن آه يا سيدى من ذلك القلب العصى الذى لا يقبل بالواقع.. فلقد ظل برغم مرور السنين ركنا مغلقا على حبه الأول وذكرياته القديمة، وحرصت على زيارة الأماكن التى شهدت بعض هذه الذكريات.. وخفق قلبى حين رأيتها.. واسترجعت ذكريات الماضى.. لكن هذا حديث آخر سأزجيه إلى آخر الرسالة.. ولأقول لك إن أختى التى تليني فى السن قد تزوجت بعدى بأول من طرق بابها وحدث معها فى فترة الخطبة نفس ما حدث معى من عذاب شديد فى إعداد الجهاز والموال الطويل عند شراء كل شيء.. ودوى صوت الرعد كل مساء، ولكن مع فارق مهم هو أنها كانت مهيأة نفسيا لهذه المعركة لسابق تجربتى معها.. فاستعدت لها جيدا ومن بعدها تزوجت أختى الأخرى، وبنفس الطريقة ومع نفس الأصوات الرعدية والجدال.. والصراع.. وبأقل الإمكانات على خلاف ما فعل آباء صديقاتها معهن، وركزت كل واحدة منا اهتمامها بزوجها وأسرتها الصغيرة.. وجاءنا جميعا التعويض الإلهى عن تقصير والدنا معنا من جانب أزواجنا.. وتحسنت أحوالهم المادية واحداً بعد الآخر.. كما تحسنت أيضا نحن الشقيقات أحوالنا المادية كذلك حتى استقرت حياتنا ورزقنا الله من فضله وأصبح لكل واحدة منا رصيد خاص بها فى البنك.. وعوضنا نحن ما قصر أبى فى توفيره لنا من مستلزمات الزواج فاشترينا الملابس والمفروشات،ونعمنا بالوفاق مع أزواجنا ورعاية أبنائنا، وفجأة توفى والدى رحمه الله وكانت المفاجأة لنا جميعا أنه قد ترك وراءه ألوان الأرض والعقارات، مبلغا كبيرا من المال الذى كان يكفى ما هو أقل من ربعه لأن يجهز به أبى كل بناته جهازا لائقاً ومشرفاً لهن أمام أزواجهن وأصهارهن، لكنه سامحه الله وغفر له قد ضن به علينا ولم يكرمنا أمام أصهارنا وأزواجنا، وتم توزيع التركة بيننا، ولم أشعر بشيء حين وقعت أوراق نصيبى فى الأرض والعقارات، لكنى حين تسلمت نصيبى من المال السائل ترجمت على أبى وطلبت له المغفرة وسامحته فى داخلى: لماذا يا أبى.. وقد كنت تملك كل هذا المال ضننت به علينا ولم تساعدنا به على تحقيق سعادتنا وأحلامنا؟ وقلت لنفسى: ما قيمة المشط الذى يعطى للرجل بعد أن يتساقط شعره؟ وما قيمة الطعام الذى لا يقدم للجائع إلا بعد أن يرغمه الجوع على أن يملأ بطنه من خشاش الأرض، لقد كان ما هو أقل من ربع هذا المبلغ وحده يكفينا جميعا لتحقيق حلم كل واحدة منا فى السعادة والحياة، والآن فإنه لا يعدو أن يكون رقما من الأرقام يضاف إلى رصيد كل منا بالبنك.

فلماذا فعل بنا أبى ذلك غفر له الله؟ لقد رحل أبى عن الحياة وعنده الإجابة على هذا السؤال، وما يعذبنى يا سيدى هو أننى وبالرغم من إخلاصى الشديد لزوجى وبيتى وأبنائى الذين قاربوا على بلوغ سن الشباب، مازالت فى قلبى لوعة وحنين إلى الحب القديم، وما أن تجمعنى به المصادفة فى أحد بيوت الأهل وتتبادل التحية وكلمات المجاملة التقليدية إلا وأشعر بكيانى كله وهو يذوب فى هذه اللحظة وأكاد أسمع دقات قلبى المتلاحقة وكأنى مازلت ابنة العشرين.. فأتذكر أبى وأطلب له الرحمة والسماح.

إننى أود أن أوجه كلمة لكل أب يملك ما يكرم به أبناءه أن يجعل هذا المال وسيلة لتحقيق سعادة الأبناء فى حياته، ليرى بعينيه سعادتهم وقد تحققت فى وجوده وبه وليس بعد رحيله عن الحياة ولا بعد فوات الأوان

فالمال قد تكون له فائدة عظمى فى وقت معين من أوقات الحياة، وقد يصبح بلا قيمة ولا جدوى فى أوقات أخرى كما هو الحال معنا الآن، وأقول فى ختام رسالتى لوالد الفتاة كاتبة رسالة «صوت الرعد» محقق سعادة ابنتك فى حياتك فهى أحوج ما تكون الآن لمالك ولن يفيدها شئ حين تحصل عليه بعد سنوات والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

كل ما يتمناه المرء قد يحققه فى حياته، ولكن غالبا بعد فوات الأوان!

هكذا قال الأديب الأيرلندى الكبير أوسكار وايلد ذات يوم، وهكذا تؤكد لنا تجربة الحياة فى كثير من الأحيان.

وتحقيق الآمال بعد فوات الأوان من مفارقات الحياة التى تثير تأملاتنا وشجوننا وتفقدنا القدرة على الاستمتاع بما حققناه من أهداف الحياة.. فالآمال المتأخرة عن موعدها المناسب تفقد الكثير والكثير من قيمتها وأهميتها لمن تطلع إليها طويلاً فى لهفة وحرمان.

وحتيك عن الطعام الذى يقدم للجائع بعد أن نشم من الشمم ذكرنا منظرية المنفعة الحدية فى علوم الاقتصاد والتى تقول لنا إن منفعة الأشياء بالنسبة لنا تتحدد بقدر حاجتنا إليها، وليس بقيمتها المجردة وحدها، فالرشفة الأولى من كوب الماء ترتفع قيمتها إلى حدها الأقصى لدى من هذه الظمأ والجفاف، والرشفة الثانية من نفس الكوب تنخفض منفعتها بقدر ما روت الأولى من ظمئه وعطشه.. وتنخفض قيمة الثالثة عن الثانية بنفس القدر إلى أن يرتوى المرء تماما فيفقد الماء كله منفعته بالنسبة إليه وتستوى قيمته لديه مع بقية الأشياء، ولقد تصبح الرشفة الزائدة بعد ذلك عبئا عليه بعد أن كانت منذ قليل أمله له. مع أن الماء هو نفس الماء فى كل الرشفات، وهكذا الإنسان دائما يا سيدتى مع كل احتياجات الحياة ، وليس من شك فى أن والدك قد أخطأ فى حقك وحق شقيقتيك خطأ جسيماً حين قبض يده وهو القادر ماديا - عن إعانتكن على أمركن فى الوقت المناسب، وحين لم يواسكن بماله وبذل لكن العطاء السمح الذى يشعركن بعز الأبوة لأبا حريص على سعادة بناته وعلى كرامتهن أمام أزواجهن واصهارهن.

والواضح هو أن والدكن قد استهول تكاليف زواج بناته وخشى أن تستنزف معظم مدخراته فأراد أن يستأن لنفسه سنة تزويج البنات بأقل الخسائر المادية وتحميل الأزواج معظم الأعباء، وبذلك ينجو هو بماله السائل ولا يبذل منه بعد العناء الشديد إلا أقل القليل لتلبية الحد الأدنى من ضروريات الفتاة عند الزواج، وهو موقف أنانى بكل تأكيد يأباه على أنفسهم وأبنائهم الرحماء من الآباء الذين لا يضنون بشيء مما يملكون على فلذات أكبادهم ولو تحملوا هم العناء فى سبيل ذلك، غير أنك يا سيدتى تربطين ربطا متعسفاً بين تقاعس أبيك عن الوفاء بمسئولياته الأبوية تجاهك عند زواجك، وبين حرمانك من الحب القديم وتحقيق أحلام السعادة مع أول من نبض قلبك بالحب له فى سن الصبا، ويغيب عنك فى غمرة ذلك، أمر شديد الأهمية هو أن موقف أبيك المادى فى مشروع الارتباط بينك وبين خطيبك الأول لم يكن وحده المسئول عن انهيار الحلم وتبدد آمال السعادة المرجوة، ذلك أن الحلم لم يتهاو على صخرة أبيك المادية وحدها، وإنما تحطم فى الحقيقة على صخرة أخرى هى رفض خطيبك الأول أن يتحمل أية تضحيات مادية فى سبيل الفوز بك.. حتى ولو كانت هذه التضحيات غير عادلة ، وكذلك على صخرة تقاعسه هو الآخر عن الاستمساك بك والدفاع عن الحب الذى جمع بينكما ولو تحمل فى سبيل ذلك العناء كما يفعل المحبون الصادقون فى حبهم وفى رغبتهم فى أن يسكنوا إلى من يحبونهن.. فلقد يسخط هؤلاء على مادية الأب الذى لا يريد أن يتحمل مسئولياته العادلة تجاه بناته،ولقد ينفعون عليه قلة مروءته وشهامته، لكنهم أبداً لا يتخلون عمن أحبوهن ولا ينصرفون عنهن بلا ندم لمثل هذا السبب المادى الرخيص.. وإنما يدافعون عن حبهم الصادق ضد الظروف غير المواتية.. ويعوضون بأريحيتهم أو تضحياتهم ما قصرت عنه همة الآباء أو مروءتهم، وهو نفس ما فعله زوجك الحالى الذى يهيم بك حبا كأنما قد خلت الدنيا من كل النساء سواك. وهكذا فعل أيضاً زوجا شقيقتيك حين قبلا بتعويض تقصير والدك فى حق بناته واستمسكا بأحلامهما للنهاية وفازا معهما بالسعادة والأمان، فلماذا لم يفعل ذلك فتاك الأول الذى يضطرب القلب الآن بعد السنوات الطويلة حين ترينه فى زيارة عائلية؟

ولماذا يقتصر لومك الباطنى على حرمانك مما تصورينه السعادة الموءودة والأحلام المنهارة على أبيك وحده ولا يمتد معه كما يقضى العدل بذلك إلى فتاك الذى تخلى عنك عند أول اختبار حقيقى لصدق المشاعر.. وجدية الاختيار؟ وكيف يهفو القلب إلى من لم يبذل قطرة عرق واحدة فى سبيل الاحتفاظ بك وقضاء بقية العمر إلى جوارك كما يفعل الصادقون فى حبهم.. فى كل العصور والأزمان؟ إنك فى حقيقة الأمر لا تشعرين بالحنين إلى هذا الحب القديم فى حد ذاته وإنما إلى براءة المشاعر وهى تخفق بنبض الحب لأول مرة فى حياتك، وإلى أحاسيس ابنة العشرين التى يضطرب نبضها حين تلتقى عينيها بعينى فتاها فى نظرة مختلسة وغير ذلك من اللفتات العاطفية والذكريات الدافئة التى أربحت فى مخيلتك بهذه المرحلة الجميلة من مراحل العمر.. لهذا فأنت تحنين إلى صباك وبواكير شبابك فى حقيقة الأمر، وليس إلى شخص بذاته.. وهكذا نفعل جميعا حين نأسى على الماضى الذى انقضى وراح ونتعنى على الحاضر الذى يذكرنا بتقدمنا فى مراحل العمر واقترابنا من غاية الحياة، وما تعتبرينه الحب الأول فى حياتك وربما الوحيد لم يكن أكثر من عاطفة غير مكتملة لم تصهرها نيران التجارب والاختبارات واختلاف وجهات النظر وتعارض الإرادات واختلاف الرؤى وتضاد المصالح، وغير ذلك من الاختبارات التى يمتحن بها صدق المشاعر.. فيصمد الحقيقى منها.. وتذروه رياح الأيام ما كان موهوما وغير صادق من الأحاسيس. ولعلك لو كنت قد تزوجت من فتاك الأول لما صمد حبك أمام مثل هذه الاختبارات الجادة، ولربما كنت قد شقيت بعشرته ورجوت لنفسك النجاة منها بعد فوات الأوان. «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون» صدق الله العظيم.. ولأنه سبحانه وتعالى يعلم ونحن جاهلون فإن من واجبنا تجاه أنفسنا دائما أن نرضى بحسن اختيار الله لنا ونسعد به.. وألا نهفو إلى غيره لكيلا نجنى من أحلامنا المستحيلة الحسرة وتشوش الخاطر.. وقلق النفس.. وكدر الخاطر.. وإغفال الشكر على الموجود تعلقا بالمفقود، ولكيلا نقع فى خطأ المقارنة الظالمة بين «خيال» موشى دائما بالورود.. «وواقع» يخلو عادة من جاذبية الخيال، وقديماً قال أحد الصالحين فى موقف مماثل: إن الحب الحلال حلال.. والحب الحرام حرام.. وأن الأفضل دائما لنا هو إطفاء الشرارة قبل أن يندلع الحريق ويتعذر علينا السيطرة عليه وإخماده. ومن أهم السبل لتحقيق ذلك تجنب اللقاء ولو كان بريئاً.. والخلوة ولو جاءت عرضا.. والنظرات المختلسة ولو لم يلحظها أحد.. والمصالح المشتركة التى قد تجمعنا برموز الماضى ولو كانت مشروعة. وذلك سدا للذرائع وإغلاقا لأبواب الضعف البشرى ودفاعا عن السعادة المتاحة لنا وحماية لها من التشوش والاضطراب.